

الجميلة والوحش

. نزيه أبو عفش .

الصولجان .. وقلبك يصطك من هيجان العروش!؟

: من أنا؟

ربما كنت من قبل صفصافة

ربما حجراً أو شهاباً

ربما كنت طيراً بغمأزتي ذهب حلوتين وقلب حكيم.

ربما وردة، أفعواناً، سفرجلة، نرجساً عاشقاً تتلألاً

ضحكته فوق ماء البحيرة زرقاء زرقاء .. يصقلها بلعاب

الأغاني ويطلقها في الهواء الكسول كما يطلق النجم

أنفاسه.

ربما ثعلباً يتزحلق تحت الظلام البتول؛ غزلاً ترن

حوافره البيض فوق لحاف الطبيعة لألاءة ومرصعة ذهباً

كنعال الأميرات.

يا للغزال!

يا لعطر التفاتته! يا لبسمته الورد! يا لنعال الأميرات.

يا للغزال

يا له! يا لفطنة أعضائه. يا لضحكة عينيه - دمعته ..

تترقق تحت شمس النهار فيرسلها عتبا مائعا.

يا له: يتصيد عشب الحياة بأهدابه .. وينقي الطبيعة

من هفوات الطبيعة.

يا للغزال الغزال

... فأذن، من أنا كي أقول لنفسي: سأفتح هذا العماء

وأخضعه بذراعي وأسلحتي؟

من أنا كي أمد بساط صلاتي على الأرض ثم أروضها

بصياحي وأوجعها بسنابك خيلي؟

ومن ... كي أقول: أنا سيد الأرض، أفتح أحشاءها

بالحراب، وأطلق فيها كلاب برابرتي وسعاة

جيوشي!؟

من أنا كي ...

ومنذا الذي قال لي: أنت رب الخليقة .. تدخلها سالماً

وتفارقها غائماً. أنت رب النباتات والوحش، رب

العنكب، رب السعادين والطير والنور والبيلسان

أنت رب الزمان ورب المكان

خالد في جنونك، في ظمأ الوحش، في شفرة السيف

- عمياء - تشحذها برقاب الوعود وتغسلها بدم

الأرض (ما أحزن الأرض!) تقطف ما شئت من روحها

كي تجرب حظك في لعبة الموت (ما أحزن الأرض!)

تقطف ما شئت من روحها وتقطره في أواني الزجاج

الكريم .. وتقطف ما شئت من روحها وتحنطه في ظلام

النعوش ..

لا لشيء سوى أن تجرب حظك في لعبة الموت، ثم

تغادرها سالماً غائماً، تتوهج عينك من شهوة

طائفًا كرسولٍ على صهوة الأرض، يَلْسَعُهَا برنينِ
حوافره ويُلْمَعُ أقمارها بالدموع

ويا للغزال!

يا له.. وَّله!

كنتُ - إذ كنتُ - أُجريتُ سيفي في نحره.. فاقتلعتُ
لهاءَ الأنينِ وفَتَّتْ أوعيةَ النورِ

قلتُ: انتهتُ حيرتي، وانتهتُ حيرةَ النورِ

قلتُ...؛

فألقيتهُ طالعًا من دخانِ ضميري يعاتبني ويؤنّبُ رعشةً
سيفي وضعفَ ذراعي.

قلتُ: فمن أنتُ؟!

قال: الجمالُ.

الجمالُ الذي لا يموتُ

الجمالُ اليتيمُ، الجمالُ الحزينُ، الجمالُ الضعيفُ
القويُّ، الجمالُ الذي أنتُ فِكْرَتُهُ ولطافةُ مغزاهُ..

قال!

فقلتُ: إذنُ ستموتُ. وقلتُ: تموتُ إلى أبدِ الدهرِ يا ذا
الرسولِ اليتيمُ، الضعيفُ، الخجولُ، البتولُ،...
جمالُ

قلتُ: مُت.

قال: لا يبلغُ الموتُ قلبي.

فأجريتُ سيفي في بؤبؤي قلبه: مُتَ ومُت.

ثم أجريتُ سيفي

فأجريتُ غصتهُ - دمعةَ النورِ

: مُت.

ثم ألقىتُ سيفي على وردِ جثمانه.. وتحسرتُ:

يا للقتيلِ اليتيمِ

القتيلِ الحزينِ

القتيلِ الجميلِ

قتيلي... جمال!

قلتُ: مُت.

..

فإذنُ: مَنْ أنا؟!

....

....

ربما كنتُ نورًا يرفُ على حافةِ الكونِ، أو ربما الغيمُ
يشرُدُ فوقِ نعاسِ الخليقةِ..

بل ربّما كنتُ نفسي

تتقطرُ بيضاءَ مصبوبةً في عجينِ الترابِ الذكيِّ وطالعةً
من خلايا البنفسجِ

حمراءَ صفراءَ زرقاءَ بيضاءَ..

لكُنّني، فجأةً، أتفقّدُ نفسي فلا أتعرفُ فيها عليها!

إذنُ: مَنْ أنا يا أناي الحكيمُ

مَنْ أنا يا أبي؟

نوحُ؟

قابيلُ؟

يونانُ؟

يوسفُ؟

فرعونُ؟

عيسى المسيحُ؟

أم غرابُ ينوحُ على قبرِ هابيلِ؟

أَمْ شَبَحِي طَالِعًا مِنْ ظِلَامِي، يَهْبُ عَلَى حَيْرَةِ الْكَائِنَاتِ
هَبُوبَ الْمَنَائِي.. وَيَتْرُكُ لَعْنَةً أَسْلَافِهِ تَتَفْتَحُ مَوْتًا عَلَى
سَقْفِ هَذَا الزَّمَانِ الْجَرِيحِ؟

أَمْ أَنَا النَّاسُ كُلَّهُمْ؟!

مَنْ أَنَا؟ وَمَاذَا...!

أَتَفْقَدُ نَفْسِي فَلَا أَعْرِفُ فِيهَا عَلَيْهَا؟!

مَنْ أَنَا وَأَنَا؟

مَحْضُ وَحْشٍ حَزِينٍ يَدْبُ عَلَى سَطْحِ هَذَا الْخِرَابِ، فَلَا
الْقَلْبُ قَلْبَ الْغَزَالِ وَلَا الْعَطْرُ عَطْرُ السَّفَرِجَلِ

وَحْشٌ.. وَلَا حِكْمَتِي حِكْمَةُ الطَّيْرِ

وَحْشٌ حَزِينٌ..

وَأَنْسَلُ كَالطَّيْرِ تَحْتَ قَمِيصِ السَّمَاءِ فَلَا أَجِدُ الْآنَ
رِيشِي!

فِإِذَنْ: مَنْ أَنَا يَا أَنَايَ

يَا ابْنَ قَلْبِ الْغَزَالِ وَرِيشِ الطَّيُورِ...

مَنْ أَنَا؟

رَبْمَا لَمْ أَكُنْ أَحَدًا

لَا الْغَزَالِ وَلَا الطَّيْرِ

لَا الذَّنْبِ

لَا الْأَقْحَوَانَ الْعَفِيفَ وَلَا شَهْقَةَ الْعَطْرِ فِي بَرْعِمِ الْوَرْدِ.

بِي ظَمًا الْمَوْتِ.

مَا لِي نَصِيرٌ سِوَايَ، وَلَا تَحْتَ جِلْدِي مِنْ شَهْوَةٍ غَيْرِ

مَا يَشْتَهِي الْوَحْشُ.

أَنْهَضُ مِنْ قَاعِ نَفْسِي وَحِيدًا

وَأَرْشُقُ سَهْمِي عَالِيًا وَبَعِيدًا

فَأَحْسِبُنِي خَالِدًا وَسَعِيدًا.

فَأَمْشِي..

أَمْصُ رَحِيقَ الْعِظْمِ، وَأَرْعَى دَمًا وَتَرَابًا

وَأَمْشِي..

قَادِرًا، مُسْتَبَدًّا، وَحِيدًا، وَمَقْلَانِي صَبِيحَةَ الْوَحْشِ

أَطْلُقُهَا فِي الْمَتَاهِ الْعَظِيمِ فَلَا أَتَبَيَّنُ خَلْفَ مَلَامِحِ مَوْتَايَ

إِلَّا دَمَامَةَ مَوْتَايَ!

أَطْلُقُهَا عَالِيًا وَبَعِيدًا

فَلَا أَتَبَيَّنُ فِي ذَعْرِ مَوْتَايَ آلَامَ مَوْتَايَ!

أَطْلُقُهَا عَالِيًا وَبَعِيدًا.. وَأَعْوِي:

إِنْهَضِي يَا كِرَاهِيَتِي مِنْ ظِلَامِكِ وَاسْتَيْقِظِي يَا

وَحُوشِي

إِنْهَضِي الْآنَ كِي يَكْمُلَ الْعَيْدُ بِي وَبِمَا أَسْتَطِيعُ مِنْ

الدَّمِ؛

بِي وَبِآلَامِ مَوْتَايَ؛ بِي وَبِآلَامِ هَذِي الْعُنَاصِرِ؛ بِي..

خَالِدًا وَسَعِيدًا؛ وَبِي.. خَائِفًا وَشَرِيدًا؛ وَبِي.. قَاتِلًا

وَوَحِيدًا؛ وَبِي.. نَادِمًا أَوْ...

وَلَكِنْ

مَنْ أَنَا الْآنَ؟

قُلْ.. مَنْ أَنَا يَا أَنَايَ الْعَظِيمِ إِذَا كُنْتُ لَسْتُ الْغَزَالِ

وَلَا الطَّيْرِ، لَسْتُ الْفَلَاةَ وَلَا ذَنْبَهَا، لَسْتُ هَذِي

الْحِجَارَةَ، لَسْتُ النِّيَابِيْعَ، لَسْتُ سِوَى عَطْشِي

وَظِلَامِي الْكَتِيمِ!

أَنَا كُلُّ مَا لَا يَرَى أَوْ يُشَمُّ.

أنا الزمن الأب والحيرة الأم.

فإذن: دلني كي أراني

ما لي سماءً لأحلمها:

دلّ قلبي إليّ

خندقي حلمي،

دلّ جذري الحزين إلى منبت البربري الحزين ..

ولهائي

دلّ مائي إلى رحمي

حيرة الكائنات،

دلّ حواء أُمي إلى حيرتي

وصوتي

أو فدلّ عظامي إلى عرشها.

صدى جريان الزمان على صخرة الأرض!

دلّ حواء أُمي إليّ

لست سواي:

دلّها كي أراني

ضعيفٌ ومستوحشٌ ..

أتشردُ في جنتي عارياً

ظالمٌ وعطوفٌ ..

أتصيدُ ما أشتهي من جمالٍ وفاكهةٍ وخلودٍ

حكيمٌ وأعمى .. ولا أتبينُ في ضعفٍ نفسي نباهةً

وأطلبُ حواءً ...

نفسِي وعفتها.

أسبحُ في نورِ أعضائها الموجعاتِ

أتسكعُ خلفِ ظلامي كمن يتسكعُ في موته؛ ممسكاً

فتعرقُ روحي من الخوفِ ..

بيدي (هكذا...) خائفاً، تعساً، ضائعاً في نسيجِ

ثم، كأن مسني نورها:

الزمان العظيم، أرفعُ سقفَ الظلامِ بخوفي وأشربُ

غصةً تحت قلبي تحكُ ضلوعَ الغرابِ الكفيفِ

أنخابَ صانعه. ثم ألتفُّ حولي وحولي وأسألني: من

فيلسعني نورُ حواء.

أنا؟!

ثم أمضي إلى ما «أنا» ..

حواءُ بابُ المشيئة، عطرُ الخطيئات، حاضنةُ النورِ

وأنا.. خالدٌ في سؤالي

حواءُ عينُ الكفيفِ، وتفاحةُ الوحشِ تطلعُ من ظمإِ

خلودِ العذابِ على الأرضِ.

الوحشِ أو تطلعُ النارُ من عظمه ..

دلّها.

نم يا أناي إذن،

دلّ أُمي إلى ضلعها

نم حبيبي إذن ..

دلّ بنتَ ضلوعي إلى بابِ حيرتها

وإذن:

دلّها .. كي أراني

دلّني كي أراني

مسجى على لحمها الوردِ

❖ ❖

آكله بحناني

❖ ❖

وأنعسُ فوق حَرِيرِ مَبَاهِجِهَا

وليفرح الذئبُ .

مثلما ينعسُ الذئبُ .

: هذا أناي .

بل : دُلّني كي أَرانا .

..

..

❖ ❖

ذَا أَنَايَ .. وَهَذَا أَنَا

❖ ❖

نائماً فوق وردِ حَبِيبِي .

... وَإِذْنُ : يَا أَبَايَ الَّذِي ... يَا أَبَايَ

لِكَأَنَّ كَانَ لَا بَدَلَ لِي مِنْ ضَلُوعِي

: نَمُ إِذْنُ يَا حَبِيبِي .

لِكِي تَتَفَتَّحَ حَوَاءُ مِنْهَا فَأَعْبِدُهَا ..

❖ ❖

ثُمَّ أَقْتَلُهَا فِي الصَّبَاحِ وَأَعْبِدُهَا

❖ ❖

ثُمَّ أَقْتَلُهَا . ثُمَّ ...

نَمُ حَبِيبِي إِذْنُ .

نَمُ أَخِي وَعَدُوِّي .. وَنَمُ يَا أَنَا الْحَلُوبُ .

: يَا رُوحَ حَوَاءِ هَبِّي عَلَى الصَّخْرِ . هَبِّي عَلَى الْمَاءِ . هَبِّي

عَلَى جَسَدِي وَعَلَى جَسَدِ الْأَرْضِ . هَبِّي عَلَى قَسْوَةِ

نَمُ يَا أَنَايَ الْمَعْدَبُ . نَمُ يَا أَنَايَ الْيَتِيمَ - أَنَا الْخَوْفُ . نَامِي

جَمِيعاً ، مَلَائِكَةُ الطِّينِ . نَامِي ، كِلَابِي . وَنَمُ ، جَدِّي

الْوَحْشِ يَا أُمَّهُ الْبِكْرِ . هَبِّي ، وَهَبِّي ، وَهَبِّي عَلَى جَزَعِ

الْعَالَمِينَ ...

الْوَحْشِ . نَمُ أَيُّهَا الْعَطْشُ الْمُرُّ ...

ضَوْنِي بِعَظِيمِ خَطَايَاكَ هَذَا الْعَمَاءَ الْحَزِينَ ، وَحَلِّي

نَامِي ، ذِرَاعِي . وَنَمُ ، جَزَعِ الْقَلْبِ .

تَعَاسْتُهُ بِلَعَابِكَ .

نَامُوا .

هَبِّي عَلَى ظِلْمَةِ الْمَلِكِ الْوَحْشِ .

وَ نَمُ يَا أَخِي الضَّيْفُ : هَذَا فِرَاشِي وَهَذِي هِدَايَايَ . لَا

هَبِّي وَهَبِّي وَدَلِّي أَخَاكَ الْكَفِيفَ إِلَى مَهْرَجَانِ سَرِيرِكَ .

تَخْشَ شَيْئاً وَلَا تَبْكُ . نَحْنُ جَمِيعاً ضِيُوفٌ عَلَى لِقْمَةِ

هَزْيِهِ فَوْقَ سَرِيرِكَ . هَزْيِهِ وَاعْتَصْرِيهِ بِأَنْيَابِ عَطْفِكَ .

الْأَرْضِ ؛ نَحْنُ : الطُّيُورُ ، النَّبَاتَاتُ ، وَحَشَّ الْبَرَارِيِّ وَالْهَيْةُ

هَزْيِهِ وَاعْتَصْرِيهِ لِكِي يَخْرُجَ اللَّيْلُ مِنْ رُوحِهِ الْعَتَمِ .

الْغَيْمِ ،

هَزْيِهِ فَوْقَ سَرِيرِكَ . هَزْيِهِ يَوْمًا وَيَوْمَيْنِ ... دَهْرًا

لُقْمَتُنَا نَدْمٌ مَالِحٌ وَشَقَاءٌ لَذِيذٌ .. فَنَامُوا .

وَدَهْرَيْنِ . هَزْيِهِ وَاقْتَحْمِيهِ . وَهَزْيِهِ وَامْتَحْنِيهِ . وَهَزْيِهِ

جَمِيعاً فَنَامُوا

حَتَّى تَفُوحَ الْبِشَاشَةُ مِنْ عَظْمِهِ وَتُضِيءَ أَحْبَابُ عَيْنَيْهِ ..

فَلَيْسَ لَنَا غَيْرُنَا كِي نُكْفِكُفَ عَنْ جَسَدِ الْأَرْضِ مَا سَالَ

هَزْيِهِ .

مِنْ وَجَعِ الْأَرْضِ ...

هَزْيِهِ يَا أُمَّهُ الْبِكْرِ ، هَزْيِهِ ...

نَامُوا وَنَامُوا

هَزْيِ وَحِشَّةِ الذَّئْبِ فِيهِ

لِتَبْرَأَ تَفَاحَةُ الْأَرْضِ مِنْ نَدَمِ الْأَرْضِ .

وَ هَزْيِ خَجَلِ الذَّئْبِ .

ناموا ..

: إنهض صديقي الجمال .

وناموا، جابرتي وسعاة جيوشي .

ذا أنا ... ذا : الطفولة مأواي والعطف سفي

فنامي إذن، حيرتي . نم، جنوني . نم، خوف نفسي .

نامي، وحوشي ...

ذا أنا : يتفتت قرناي ... والعطر يمحو ظلامي .

وحواء تصقل أقمار قلبي الضعيف

فيضحك قلبي الضعيف

ويطلع

من زغب الضعف

ريشي .

...

...

ذا أنا :

الضعف سفي

وقلبي لؤلؤة الماء والطين

: نم

يا

حبيبي .

دمشق

كانون الأول

آب ٢٠٠٢

ذا أنا، هفوة الماء والطين، عدت إلى رحم الوردة - الماء

والطين .. فانهض، أناي الجميل . انهضي يا ملائكتي

البيض . انهض، حناني وضعفي . وانهض، هوائي

ومائي . وانهض، ترابي وعشبي . وانهض، إلهي الجمال

ذا أنا عدت مني إلي فأبصرتني خالداً في حنان النبات

ودمعة قلب الغزال

ذا أنا عدت مني فأبصرت نفسي

: إنهض، إلهي الجمال .

ذا أنا : ابن ربك، ابنك، ابن الجمال العظيم، هزمت

على بابيه وأتوب إليه، فبارك شجاعة ضعفي يا ذا

الجمال العظيم، وقم خالداً ... وضعيفاً ... وأضعف .

انهض وقم يا الإله - إلهي اليتيم العطوف الضعيف

الجميل ... جمال .

ذا أنا - أنت - فانهض .. فأبرأ من قوتي وعمامي وفولاذ

عقلي وأسئلتي ودمائي تنزف من لحم سفي وتصدأ

فوق حراب جيوشي

ذا أنا وهزمت على بابك الـ ... باب نفسي .

ذا أنا، مثلما شاءني «أنت»، عارٍ ضعيفٌ وأجملٌ مما

تصورتني في المنامات

في العدد القادم من الآداب

■ قصائد: مجيد الموسوي. ستار عبد الله...